كتاب الشهر

من بلاد الرافدين إلى أرض الشام مروراً بعصر النهضة
شادي ريا مستقرئًا الحضارات والأديان بالموسيقى

الموسيقى التي توظف اليوم في علاج السرطان والاضطرابات النفسية كالتوحد، كانت في ما مضى حكرا على "الالهة". حقائق مثيرة ومهمة نكتشفها في رحلة عبر التاريخ والاديان والحضارات خلف دليل من نوع خاص هو مؤلف كتاب "موسيقات الحضارات والاديان"

ثلاث سنوات امضاها شادي ريا للخروج بكتابه "موسيقات الحضارات والاديان" (2018 ـ اصدار خاص). الخبير الموسيقي (حاصل على شهادة الماجستير في الموسيقى ومتخصص في العزف على الات النفخ، واستاذ موسيقى في الكونسرفاتوار الوطني في زحلة)، كان طفلا في الجوقة الكنسية حين بدأت قصته مع الموسيقى. منذ تلك السن، حداه فضول شخصي على معرفة ماذا تعني الموسيقى السريانية والبيزنطية، والارمنية والقبطية وغيرها، وحيّرته الفوارق بين كل هذه الانواع والمدارس والحضارات. كبر الطفل وكبرت معه الفكرة، الى ان تخصص في الموسيقى البيزنطية التي فتحت له افاقا ونوافذ وابوابا، افضت الى امكنة اخرى شاسعة.

من الموسيقى البيزنطية، انتقل ريا الى دراسة الموسيقى السريانية، ثم الى الحضارات القديمة الاخرى التي شكلت عماد كتابه الجديد. لعله اول عمل لبناني من نوعه يقارب تاريخ الموسيقى على مر الحضارات والاديان التي شهدها الكوكب، مذيلا بقائمة طويلة من المراجع.

الملفت ان المرجع الاول الذي استند اليه ريا، في انجاز كتابه، هو الانجيل بعهديه القديم والجديد. في العهد القديم مثلا، يرد ذكر داود الذي كان ماهرا في العزف على العود والمزمار. في تلك المرحلة اخترعوا ايضا الالات الموسيقية. لكن العود لم يكن ذاك الذي نعرفه اليوم، بريشته واوتاره السبعة، بل كان داود "يضرب عليه".

اكتشافات مذهلة ومثيرة تصادف القارئ، وهو يرتحل في صفحات هذا العمل المرجعي الذي يقدم نظرة شاملة ومقتضبة عن: الموسيقى في الحضارات القديمة، في المسيحية واليهودية، الموسيقى السومرية، البابلية ومصر الفرعونية، اليونانية، الفارسية والهندية والصينية واليابانية، العبرانية والبيزنطية والسريانية والارمنية والقبطية وكل جهات الارض. كذلك، يتوقف عند الموسيقى في الاسلام بعصوره المختلفة، وصولا الى الموسيقى العربية في العصر الحديث، والموسيقى الشرقية والشرق عربية، والاندلسية.

في تلك الازمنة، كانت الموسيقى وسيلة لاسترضاء الالهة، وكانت توظف "لاستنزال الضرع والزرع"، وكان الصيادون مثلا يلجأون الى "الترنم بكلمات سحرية لشحن ذواتهم بالقوة والجلد في مطاردة الفريسة والتركيز المطلوب لدقة التصويب بالسهام". هنا، يرى المؤلف ان الحضارة السومرية ـ ام الحضارات ـ كانت الرائدة في المجال الموسيقي. اذ احتلت الموسيقى مكانة اساسية في بلاد الرافدين. كان هؤلاء يستعملون الهارب والمزهر طويل العنق خلال احياء احتفالات الهة الشمس والحرب والخصوبة.

اما في خصوص الصلوات المقدسة، فكانت "تؤديها جوقات حورية تلقت تدريبها في مدارس تابعة لهياكل العبادة". اكثر من ذلك، كان "الكهان يكتبون على الاجر بالخط المسماري النصوص الدينية والعلمية والموسيقية"، فحفظت تلك النصوص الكثير من الصلوات والترانيم الدينية، مع تدوين الموسيقى المصاحبة. اذا، بدأ السومريون باكرا في وضع بنية مؤسسية للموسيقى، كي يبنى عليها التراكم المطلوب والضروري.

وعلى رغم ان ظهور الحضارة في وادي النيل بدا في الالف الرابع قبل الميلاد، اي تاخر عن الحضارة السومرية بضع مئات السنين، الا ان الموسيقى والغناء كانا يحظيان باهتمام بالغ منذ الاسرة الفرعونية الاولى. يورد المؤلف ان فرعون مصر كان يتمتع ـ تماما كسائر الملوك مثل ملك بابل وملك سومر ـ باعداد كبيرة من الموسيقيين. وتشهد على ذلك "نقوش جدران المعابد، ومدافن القبور الملكية الحافلة بصور الراقصين والعازفين والمغنين".

كانت النظرة الى الموسيقى بدأت تتغير مع بداية الالف السادس قبل الميلاد، خصوصا عند الحضارة السومرية التي يعتبرها المؤلف منبع الالهام في الموسيقى. في الحضارتين السومرية والمصرية، لم تعد الموسيقى وسيلة لاسترضاء الالهة وعبادتها وتكريمها فحسب، بل استحالت فنا قائما في خدمة الانسان ومتعته. فبدأ التطوير الفني في هذا المجال. المكانة الرفيعة للموسيقى ايضا كانت في صلب الحضارة الاغريقية، خصوصا متى عرفنا ان كلمة موسيقى هي من اصل يوناني "موزيس"، وتعود باصلها الى "ميز"، وهو اله من الهة الفنون عند الاغريق. لاحقا، نظر الفلاسفة اليونانيون حول اهمية الموسيقى، اذ رأى ارسطو وافلاطون مثلا ان الموسيقى وسيلة فعالة لتهذيب النفس واثراء الاخلاق وسموها في المجتمعات. راح افلاطون الى اعتبار الموسيقى فنا قائما في ذاته، واضعا اياها ضمن ارفع انواع الفنون على الاطلاق نظرا الى تأثيرها على النفس الباطنية والحياة الانفعالية للانسان. واعتبر ان الشعر يخرج هزيلا ما لم يترافق مع الموسيقى. حتى انه فُرض على افراد الشعب اليوناني دراسة الموسيقى وتعلم اصولها وقواعدها بسبب قدرتها على السمو بالمشاعر والنفس البشرية.

مع توالي فصول واقسام الكتاب، يلحظ القارئ ان بداية الموسيقى هي فعليا بداية تشكل كل حضارة، كأنها مرآة لهذه الحضارة والدين الذي اعتنقته. كل حضارة كانت تتميز بموسيقى والات موسيقية خاصة بها، قبل ان يحدث لاحقا احتكاك بين الحضارات وبالتالي موسيقاها ويرسى نوع من تمازج حضاري موسيقي. هنا، يمكن القول ان العرب تأثروا موسيقيا بالفرس الذين ادركوا باكرا اهمية الموسيقى وقدسوها بعدما اكتشفوا فوائدها النفسية وتأثيرها فادخولها في معابدهم وشؤونهم الدينية. وقال هيرودوت حوالى سنة 425-484 قبل الميلاد ان "الموسيقى الفارسية كانت من ارقى الموسيقات واحلاهما نغما واشوقها سمعا".

هكذا، اتقن الفرس صناعة الموسيقى، وسبقوا الكثير من الامم الى وضع القواعد والاصطلاحات المتعلقة بها. حتى ان اسماء ودرجات السلم الموسيقي الفارسي (سيكاه، شاهناز، راست...) لا تزال معتمدة عند الاتراك والعرب.

الاختلاط الاول بين العرب والفرس، جاء في المدينة المنورة حيث تأثر العرب باسراهم من الفرس، وبدأت صناعة الغناء تنتقل الى الذكور من العرب امثال طويس الذي يعتبر اول المغنين العرب. هنا يرى الباحث ان علاقة الاسلام بالموسيقى شهدت مدا وجزرا، مع ان لا كلمة مباشرة في القرآن تحوي نوعا من كراهية للموسيقى. هكذا، شهدت الموسيقى في بداية عهد الخلفاء الراشدين (632 ـ 661 م) هجوما وتجريما من المتشددين، قبل ان تنفرج الامور في عهدي علي وعثمان اللذين "تغيرت مظاهر الحياة الاجتماعية عند العرب والمسلمين وشجعوا الموسيقى على انها جزء من حياة الرفاهية". وجاء العصر العباسي (750 ـ 1258) لينعش العلوم والفنون، خصوصا الموسيقى لناحية الاداء الغنائي والبحوث والدراسات الموسيقية. هكذا، وضع ابن منجم كتابه "رسالة في الموسيقى"، وهو عبارة عن بحث قيم في السلم الموسيقي العربي الذي كان معتمدا حتى القرن الخامس عشر. وكان هذا السلم مشابها للسلم الفيثاغوري الاغريقي، خصوصا وان العرب نهلوا من علوم اليونان بواسطة عملية الترجمة التي بلغت اوجها في القرن التاسع الميلادي. وجاء عهد هارون

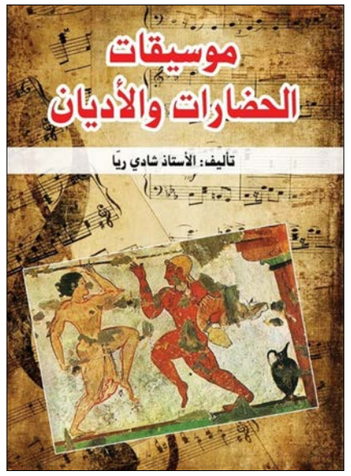

غلاف الكتاب.

> **استعمل السومريون الهارب والمزهر في احياء احتفالات آلهة الشمس والحرب والخصوبة**

الرشيد (786 ـ 809) مليئا بالامجاد والتطور في الثقافة والفن والاداب، ودخلت بلاطه اعظم المواهب على رأسها ابراهيم الموصلي، واسحق الموصلي، وابن جامع وغيرهم. لا بد من ان نذكر هنا ان العرب في العصر الجاهلي مثلا كانوا شغوفين بالموسيقى. الدليل على ذلك هو المعلقات التي كانت تعتمد على الموسيقى، فنجدها في شعر امرئ القيس، وزهير بن ابي سلمى، والاعشى، والنابغة الذبياني، وعنترة وحاتم الطائي.

يرى المؤلف ان ذلك انما يدل "على تجذر الموسيقى في حياة العرب، وذلك ملمح انفتاح في الروح العربية منذ القديم، واستمر الى ما بعد الاسلام لترافق الموسيقى الاهازيج الروحية والوجدانية الصوفية وغيرها".

تتواصل هذه الرحلة في تاريخ الموسيقى وصولا الى العصر الحديث.

يتوقف شادي ريا عند عصر النهضة (1800 ـ 1910) في العالم العربي الذي ترافق مع توق شعوب المنطقة الى التحرر من نير الاستعمار. شهدت الموسيقى في النصف الاول من القرن التابع عشر نهضة في المدرسة الموسيقية العربية الحديثة. من رواد هذه الحقبة نذكر محمد شهاب الذي "يعتبر من دعائم المباحث الموسيقية في القرن التاسع عشر". هو صاحب كتاب "سفينة شهاب" الذي ضم 350 موشحا مبنية على مقامات واوزان وقواف. كما برز محمد عبد الرحيم المشهور بـ"المسلوب"، فكان اول من تغنى بالدور.

مع بداية القرن العشرين، بدأ الصراع بين القديم والجديد، والشرق والغرب، وانطلقت المعاهد الموسيقية في سوريا في الثلاثينات، ومصر في العشرينات، الى جانب بدء التدوين الموسيقي. شهدت تلك الحقبة ايضا مؤتمرا للموسيقى العربية في مصر عام 1932 لدراسة الانغام والاوزان وكل ما يتعلق بالموسيقى العربية. من اعلام تلك المرحلة، نذكر ابو خليل القباني ومحمد عثمان وعمر البطش والشيخ عبده الحمولي والشيخ عثمان الموصلي وسيد درويش.

طبعا، ورث لبنان الارث الموسيقي والفني لمنطقة بلاد الشام، ولم يكن يملك هوية فنية مستقلة، خصوصا وانه على اختلاف الحقبات التاريخية التي مر فيها، لم يكن كيانا مستقلا قائما في ذاته. اما في خصوص نحت هوية موسيقية لبنانية صرف، فهذا الامر لم يبدأ الا مع المدرسة الرحبانية والملحنين الراحلين فيلمون وهبي وزكي ناصيف والمطرب العملاق وديع الصافي بحسب المؤلف. هؤلاء هم الذين صاغوا هوية فنية وحضارية ترافقت مع الشكل الجغرافي النهائي للكيان اللبناني.

على امتداد صفحات الكتاب، يخلص القارئ الى ان الحضارات المتعاقبة جعلت من الموسيقى هوية ولغة، توصل عبرها حمولتها الثقافية وتعبيراتها الى الاخر. الاهم ان الموسيقى في الاصل هي رسالة سلام وتآخ انساني ورُقي وانفتاح روحي وحضاري، بها نتخاطب بعيدا من التعصب والانغلاق الذي بات سمة الزمن الراهن.